تحسُباَ.. لا تطيُراَ !

بتعاقب النكبات والنكسات والنكصات، وعليه قس، يتكاثر المتطيرون كالارانب.

هذا يحلف بقبر جده انه لن تقوم للامة قائمة بعد العراق .. وذاك يقسم ويده على شنبه بان اليهود سيحتلون مكة في موسم الحج القادم .. وآخر يستل من جيب قمبازه ورقة مهروءَة من كثرة ما هي مقروءة، ويكرر ابياتا من الشعر الركيك منسوبة الى محيي الدين بن عربي رحمه الله واعفاه من موبقاتنا.. وترى الى كل هؤلاء وهم يجزمون بان الدنيا في آخر وقت وان القيامة قائمة بعد سبعة ايام او سبعة اسابيع او سبعة اعوام في اقصى حد.

وهذا التطير الذي قصفتنا به الطائرات الامريكية، هو احساس طبيعي وانساني في الاوساط التي علمتها ضرورات الحياة اليومية والكدح في سبيل الرزق ان تنظر بين يديها ورجليها فحسب، ولانها، اصلا، غير مطالبة بالاحتراف السياسي والاستقراء التاريخي، فهي صادقة تماما في هواجسها ومخاوفها وتطيرها.

اما الامر المؤسف حقا فهو سقوط عناصر محسوبة على الدوائر الواعية والطليعية والتقدمية، في شرك البلبلة والفوضى واليأس، لا

لسبب، سوى ان ايمانها بشعاراتها هي ليس ايمانا مدروسا وراسخا واصيلا.

ولا يعنينا الجانب الشخصي من هذه الظاهرة، حتى لو كان بين المهزوزين اشخاص محسوبون على قيادة الجماهير. الذي يعنينا هو الجماهير نفسها، صاحبة الشأن المباشر، التي نرى من واجبنا القومي والفكري حمايتها من نفوذ الامزجة المرضوضة الهشة المتقلبة مع تقلبات الطقس السياسي.

لهذه الجماهير نقول ان التاريخ لا يتحرك بعملية حسابية دقيقة ١+٣ (في الرياضيات) = ٤ والله اعلم. اما في السياسة وفي التاريخ فان ١+٣ لا تساوي ٤ بالضرورة، والله اعلم.

ونتائج حرب الخليج لن تؤدي بالضرورة الى حل القضية الفلسطينية وشيكا، بالضرورة، كما انها لن تعرقل هذا الحل، بالتأكيد.

ثمة متغيرات على الساحة الدولية، تتفاعل بنشاط، ولا تتيح مجالا لفراغ. وفي مقدمة هذه المتغيرات ما يجري في الاتحاد السوفييتي وفي اوروبا الغربية وما يجري في الوطن العربي وفي اسرائيل. ونحن على يقين من ان منطق المرحلة العالمي لا يسمح بنشوء نظام الدولة الواحدة، المعلم، الشرطي، الاب، المربي، السيد، القاضي -كما يريد جورج بوش.

ويبقى مكان للتحسب. فليس امرا مستبعداً ان تحاك الآن في الخفاء حرب ضد سوريا، وقد تكون اسرائيل هي الاداة المباشرة لهذه الحرب. وقد تكون تركيا تورغوت اوزال هي الاداة. قد تكون حربا على القوة السورية غير التقليدية (اسوة بما حدث في العراق) او حرب مياه على خلفية نزاع نهر الفرات.

وعلى اية حال فان الامبريالية الدولية ما زالت قادرة اليوم، وقد تكون اكثر قدرة مما كانت عليه بالامس، على التحكم بخيوط اللعبة على مسرح الارجوز الشرق اوسطي. واذا كانت تمارس اسلوب التحكم عن بعد (ريموت كونترول) قبل حرب الخليج، فقد اخذ تحكمها صيغة مباشرة، من خلال التواجد العسكري والسياسي والاقتصادي المكثف.

رغم ذلك فلا نرى ان القيامة قائمة بعد اسبوع او سبعة اسابيع او سبعة اعوام، فعلم القيامة علم الله، اما علمنا نحن فهو علم الارادة الشعبية والحلم الانساني والطموح البشري نحو الحرية والحق والسلام والتقدم الاجتماعي.. وهذا العلم المجرب والذي ثبتت دقته ونجاعته .. هذا العلم هو الذي يجعلنا على اهبة الحذر وعلى اهبة الاستعداد، تحسبا.. لا تطيرا.. والله اعلم!

«الاتحاد» ٢٢ آذار ١٩٩١